

بدء الحرب

نارفا: من الهزيمة إلى النصر

قبيل وصول نبأ توقيع معاهدة الأستانة، وعد بطرس ملك بولونيا، وحاكم سكسونيا أغسطس الثاني قائلاً: «إذا استلمت نبأ الصلح اليوم سأحرك قواتي غداً ضد السويديين».

وبالفعل أعلنت روسيا الحرب على السويد في ٩ آب (أغسطس)، ويقول كلوتشيفسكي: «كانت هذه الحرب قد باغتت حتى روسيا بسوء التحضير لها وتخطيها»، فقد بدأها في جوانها حلف الشمال، ودسائس أغسطس الثاني، والمغامراتكول، وسوء تصرف الحلفاء، ولا تجانب هذه الكلمات الصواب، فإن استعجال القيصر، وسوء التحضير، اللذين سرعان ما بدت آثارهما كانا نتيجة لحسابات، وهفوات معينة، كان الموقف الدولي بالنسبة لروسيا ليس سيئاً حسب الظاهر، انشغال الدول الأوروبية الأساسية بالتحضير للحرب من أجل التركة الأسبانية، وانشغال الملك السويدي بمقاتلة الدانمارك وسكسونيا وبولونيا حلفاء روسيا، وتخلص هذه الأخيرة مما كان يقيدتها في الجنوب، زد على ذلك أن القيصر اتخذ بعض الإجراءات العاجلة لإعداد البلاد والجيش للعمليات الحربية في منطقة ساحل البلطيق (التجنيد، وإعداد الذخيرة وتأسيس، مانوفاتورات جديدة، واتخاذ إجراءات إدارية جديدة، وهلم جرا)، إلا أن ذلك لم يكن كافياً بالطبع.

وفيما بعد، اعترف الإمبراطور والقائد المجيد بطرس الأكبر، في آخر أيام حياته (وكانت الحرب المظفرة ضد السويد قد انقضت من زمان)، أنه بدأ تلك الحرب كالأعمى دون أن يعرف مدى قوة العدو وحالة قواته، إلا أن أحداث عام ١٧٠٠، كانت لا تزال بعيدة جداً عن هذا الاستنتاج الجريء المفعم بالانتقاد الذاتي، وكانت لا تزال تنتظر روسيا مرارة الهزيمة، والكدمات والرضوض التي سيتضح نفعها فيما بعد.

بدأت الإخفاقات من البداية، ففي ٨ آب (أغسطس)، أي في يوم وصول النبا من أوكرانيا لتسيف في الأستانة، بلغ بطرس خبر استسلام الدانمرك، ومساعدة الإنجليز لملك السويد، حيث نقلت سفنهم قوات الإنزال السويدية عبر المضيق إلى الدانمرك، ولم يثبط ذلك من عزيمة القيصر، فتحركت قواته في ٢٢ آب من موسكو باتجاه الشمال الغربي، إلى نارفا القلعة السويدية على الحدود الشرقية لمتلكات كارل الثاني عشر في البلطيق، ونقلت عشرة آلاف عربة المدفعية والمؤن وسواها، ورافق بطرس جيشه برتبة كابتن سرية المدفعية في فوج بريوبراجينسكي.

وفي مدينة تفير استلم القيصر نبأ مقلقا جديداً: خصمه الملك كارل الثاني عشر، ينوي المجيء إلى البلطيق بجيش من ١٨ ألف شخص، وقال بطرس مرتاباً: «فكرت في ذلك مراراً، هل الخبر صحيح أم هو خدعة؟ وإذا كان صحيحاً فإن ملك الدانمرك بالطبع اندحر أمام القوافل الموحدة».

لقد فهم القيصر الأمر بشكل صائب، إذا كانت الأخبار عن مخططات السويديين صحيحة، فإن ملكهم وصل من بلاده عبر المضيق بمساعدة «القوافل الموحدة»، بمساعدة بريطانيا وهولندا والسويد نفسها، لكن بطرس ظل يتقدم إلى الأمام دون أن يلتفت إلى المعلومات الجديدة التي استلمها توا، لا سيما وإن جنوده أكثر من جنود ملك السويد.

وفي ٢٣ أيلول (سبتمبر)، بعد شهر واحد، بلغت أفواجه أسوار نارفا، وكانت الحملة بطيئة مرهقة، حيث عرقلت أحوال الخريف سير القوات، وخصوصاً العربات والمدافع والذخيرة، ولم تصل القوات بكاملها إلا في أواسط تشرين الأول (أكتوبر)، وقاد القيصر نفسه الحصار، فحدد مواقع البطاريات، ووجه علميات المدفعية، إلا أن البارود والقنابل لم تكف إلا للأسبوعين، فالقصف لم يلحق ضرراً ملموساً بالمحاصرين، ولم تصل كميات جديدة من الذخيرة بسبب سوء الطرق.

استمر الحال على هذا المنوال أكثر من شهر إلى أن وصلت بصورة مباغتة، كما في الدانمرك، قوات «المتهور الإسكندينا في» (على حد تعبير كلوتشيفسكي) ملك السويد، ويبدو أن بطرس لم يعر ذلك اهتماماً كبيراً، فإن قواته على أية حال تفوق قوات العدو ثلاث مرات (٣٥-٤٠ ألف روسي، مقابل ١٢٨ ألف سويدي)، واتضح أن اعتماداه على خبرة الضباط الأجانب الذين قادوا جيشه لم يكن له ما يبرره، وكان قد نصب على رأس جيشه الفيلدمارشال الكونت شارل ديكر، الذي انتقل للخدمة عند أغسطس الثاني بعد أن أخفق في الخدمة في النمسا (مُنِي بهزيمة في ساحة القتال)، وكان أغسطس الثاني قد أرسله إلى «صديقه وحليفه» بطرس، بينما دأب ديكر على إرسال رسائل سرية إلى الملك أغسطس الثاني مكتوبة بالشفرة كيلا يفهم الروس فحواها، وترأس أغلبية الأفواج ضباط أجانب، كان موقفهم من القضية ومن الجنود قد أثار شكوك هؤلاء الآخرين، ثم إن القسم الأغلب من الجيش مكون من أفواج القوات الخاصة السابقة، والمتطوعين النبلاء، وأفراد جدد لكنهم من المجندين حديثاً، ولم يبد قدرة كفاحية حقيقية في القتال اللاحق مع جيش يعتبر من أفضل الجيوش الأوربية؛ إلا فوجاً حرس بريوبراجينسكي وسيميونوفسكي وفوج ليفورتوفسكي.

ووصل السويديون إلى نارفا في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)، وارتحل بطرس إلى نوفغورود ليستحث الأفواج التي تخلفت، وفي اليوم التالي، ١٩ تشرين الثاني، اقترب كارل الثاني عشر بجيشه من المواقع الروسية الممتدة على طول سبعة كيلومترات ونيف، وفقاً لتوزيع قوات الحصار، وشارت عاصفة ثلجية اتخذها السويديون ستاراً للهجوم حازم جرى جعل فوجي شيريميتيف وغولوفين يفران هارين في ذعر شديد، عبر أفراد فوج شيريميتيف نهر ناروفا سباحة من ضفته الغربية إلى ضفته الشرقية، بينما فر أفراد فوج غولوفين باضطراب على الجسر الذي هوى رأساً، وقتل وغرق آلاف الجنود، إلا أن فوجي الحرس وفوج ليفورتوفسكي صمدت ببسالة، وصدت هجمات السويديين المتكررة.

انتصر كارل الثاني عشر بسرعة وسهولة، وكان مع ذلك يخشى ضربة الزوس من المؤخرة ويراعي تفوقهم العددي، ولذا أمر بترميم الجسر المحطم مع حلول الظلام لكي تتمكن الأفواج الزوسية المتبقية على الضفة الغربية من عبور النهر، فالغالب خائف من المغلوبين، لكن هؤلاء الأخيرين ما كانوا يفكرون في الانتقام، فالذعر والارتباك وخيانة الأمرين الأجانب (ديكروا وغيره من الضباط الأجانب استسلموا للأسر من بداية المعركة)، وسوء التنظيم عموماً كل ذلك قد فعل فعله، وأدى التنظيم العسكري القديم والارتباك، والجبن وخيانة قادة الجيش الأجانب والأخطاء في إعداد الحملة إلى هزيمة ماحقة.

وفي الليل بدأت المفاوضات وانتهت باستسلام الجيش الزوسي، ووافق الملك على أن يغادر هذا الجيش مواقعه في نارفا بكامل سلاحه، ويترك المدفعية فقط، ولكن السويديين أخلوا بالاتفاق عندما عبر فوجا الحرس إلى الضفة الشرقية على الجسر الذي أعيد بناؤه، فقد أوقفوا الأفواج الأخرى، وجردوا الجنود من السلاح، وأسروا الضباط.

وسرعان ما بلغ بطرس النبأ المرير، نبأ هزيمة جيشه الماحقة المشينة، فبالإضافة إلى ١٢٥ مدفعا التي غنمها العدو، فقد الزوس ٦ آلاف شخص بين قتيل وغريق، ووقع جميع الضباط تقريباً في الأسر أو قتلوا.

وانتشر في أوروبا كلها خبر الانتصار الباهر الذي حققه الملك الشاب، وهزيمة القيصر الزوسي «الهمجي»، وسك السويديون مدالية بمناسبة النصر، على أحد جانبيها صورة بطرس والمدافع الزوسية، وكتابة تقول: «انتهى بطرس»، وعلى الجانب الثاني بطرس وجنوده يفرون من نارفا، القيصر حاسر الرأس، سيفه على الأرض، وهو يبكي بمرارة، ويمسح دموعه بمنديل، وكتابة تقول بمزيد من التهكم: «أطلق ساقيه للريح منتحباً».

وسرعان ما وصلت من المبعوثين الروس في البلاطات الأوربية رسائل مستعجلة، تتحدث عن الاستهانة والسخرية من جانب الحكام والوجهاء هناك، فيما يخص الجيش الروسي والقيصر نفسه، وكتب ماتيفيف، مثلاً، من لاهاي يقول:

- السفير السويدي يفرض في الشتائم، ويتجول بين الوزارات، ولا يكفي بمسبة قواتكم؛ بل يتعرض لشخصكم بفاحش الكلام زاعماً بأنكم ارتعبتهم من مجيء مليكه وتركتهم القوات وارتحلتم إلى موسكو قبل يومين من وصول الجيش السويديين إلى نارفا، واندلاع القتال.

ووصلت الأفواج الروسية بصعوبة إلى نوفغورود تجر جر أقدامها، جائعة ممزقة بالأسمال. وبدلاً من أن يطاردها كارل الثاني عشر، وينقل العمليات الحربية إلى أراضي روسيا، ويرغمها على توقيع صلح مريح بالنسبة له، وجه قواته وجهة أخرى نحو الجنوب ضد بولونيا، وأغسطس الثاني الذي يكرهه جداً؛ لأنه هو المبادر إلى تشكيل حلف الشمال؛ هكذا يتصور هو على الأقل، وكان يحتقر بطرس ويستصغرشأنه بعد النصر السهل في نارفا، وتصور ملك السويد نفسه، على ظهر الحصان الأبيض، بأنه الإسكندر المقدوني الجديد، ولم يخف مشاعره إزاء ملك بولونيا، فقال: «سلوكه شائن معيب يستحق عقاب اللهن والاحتقار من جانب جميع ذوي العقل السليم».

وأخذ ملك السويد، كما يقول كلوتشيفسكي، يساعد بطرس على قدر الإمكان بملاحقة أغسطس الثاني، فاستفاد القيصر بالكامل من فترة الهدوء التي وفرها له بذلك كارل الثاني عشر، وقد فهم في الحال أصل وجوه ما حدث في معركة نارفا، وفيما بعد جاء في «تاريخ الحرب السويدية» بمنتهى الصواب:

«... انتصر السويديون على قواتنا، لا جدال في ذلك، ولكن تجدر الإشارة إلى نوعية القوات التي انتصروا عليها، كان بينها فوج قديم واحد

فقط، هو فوج ليفورتوفسكي (الذي أطلق عليه اسم فوج شيبيليف قبيل ذلك)؛ أما فوجا الحرس فقد شاركوا في حملتي آزوف فقط، ولم يشاركا في المعارك الميدانية، أي لم يقاتلا ضد القوات النظامية أبداً، أما سائر الأفواج - ما عدا بعض المتقدمين - فهي مجندة حديثاً سواء ضباطها وجنودها... ثم إن المجاعة الكبيرة حلت لأمدٍ طويل، لأن الأحوال الشديدة حالت دون إيصال المؤن، باختصار، كل ما حدث كان كلعبة الأطفال، وفن القتال أوطأ من المطلوب، فلا غرابة إذا حقق جيش قديم مُدرب جيداً، ومجرب كثيراً على عساکر غير متفننه في القتال... ولكن عندما وقعت تلك المصيبة (وربَّ ضارة نافعة) طردت العبودية الكسل والتهاون، وعودتنا على حب العمل، وفن القتال ليل نهار».

هذا هو رأي القيصر الصريح في كارثة معركة نارفا، وبالمناسبة فإن نطاق الكارثة مبالغ فيه كثيراً، من قبل بطرس نفسه، ومعاصريه من الروس والأجانب، وكذلك من قبل المؤرخين المحدثين، إلا أنها أثارت دهشة الجميع لدرجة جعلتهم في كل مكان في أوروبا، يسخرون من روسيا ومن بطرس، وبعد عام أو عامين بدأ الروس بضرب السويديين، وخسر العدو في المعارك آلاف القتلى، خسر أحياناً أكثر مما خسره الروس في واقعة نارفا، لكن أحداً لم يبد اهتماماً كبيراً بذلك، فقد ظلت هزيمة «الموسكوبيين» في معركة نارفا أمداً طويلاً، حوالي عشر سنوات، تثير دهشة وإعجاب أوروبا، وخصوصاً الحادقين على روسيا وبطرس.

فقد قالوا وكتبوا عن القيصر الروسي في أعقاب الهزيمة، ولأمدٍ طويل بعدها، أنه جبن وفر من ساحة المعركة قبل اندلاعها، ولا يمكن الموافقة على هذا الرأي، فقد أوردنا أعلاه ملاحظات وأسباب رحيله من نارفا، زد على ذلك أن القيصر قبل معركة نارفا، أثناء حملتي آزوف مثلاً، وبعدها، في معركة بولتافا بزا، وفي معركة هانكوبجرزا، وفي العديد من المعارك الأخرى أبدى بسالة منقطعة النظير، وتعرض لأخطار جسيمة شأن الجندي الحقيقي، ولا أحد ينكر عليه ذلك، لكنه عندما يتطلب الموقف

يعهد بقيادة الجيش، والعمليات الحربية إلى جنرالاته، ويمارس أعمالاً أخرى، وما أكثر تلك الأعمال في الشؤون العسكرية وغيرها، ومع أن كلوتشيفسكي لا يفوت فرصة ليغمز بالقيصر، فإنه يقدره حق قدره، ويقول: «كُلَّف بطرس جنرالاته وأميرالاته بإدارة العمليات في الجبهة، وأخذ على عاتقه الجانب التقني من الحرب، أي الجانب الأقل وضوحاً، كان عادة يبقى خلف جيشه، ينظم مؤخرته، ويعبئ المجندين، ويضع خطط العمليات الحربية، ويبني السفن والمصانع الحربية، ويهيئ العدة والعتاد والمؤن، ويختزن كل الاحتياطات، ويستحث الجميع، ويقرعهم ويشتمهم، ويتشاجر معهم، ويعدم بعضهم، ويتنقل بين أرجاء الدولة، فكان بمثابة أمر المدفعية العام، ومدير المؤنثة العام، وكبير بناء السفن».

وكان من نقاط الضعف بالنسبة لبطرس في حرب الشمال، حلفاؤه الخائرون الذين لا يكتفون له الود ولا تروق لهم أعماله، وكانوا في الواقع يسيرون بالأمر إلى إحباط مخططات بطرس العسكرية، مع أن أغسطس الثاني كان يعيد ويكرر، بمناسبة وغير مناسبة، مودته له، وكان ذلك هو السبب في خيانتة ديكرورا، وعشرات من الضباط الأجانب الآخرين في موقعة نارفا، وإنهاء حصار ريغا، ومفاوضات السكسونيين الانفرادية مع السويديين، وغير ذلك من الدسائس، كان القيصر يرتاب في بعض الأمور، لكنه لا يعرف الحقيقة كاملة (فهو لا يعرف، مثلاً، بالرسائل السرية التي بعثها ديكرورا إلى الملك أغسطس الثاني، ولا يعرف بنوايا الملك نفسه ومستشاره المغامر باتكول)، لذا ظل يثق بالحليف المزعوم، وعندما اضطر بعتة إلى مواجهة جيش نظامي حسن التدريب، بدلاً من حامية القلعة وحدها، كانت النتائج مؤسفة جداً بالنسبة له ومفرحة بالنسبة للسويديين، فليس من قبيل الصدفة أن انتشى ملكهم، وتصور نفسه أعظم من الإسكندر المقدوني، وليس من قبيل الصدفة أنه نقد القائد العام الروسي الذي انتقل إلى معسكره مجللاً بالعار ١٥٠٠٠ روبل، وأجلسه لتناول الطعام على مائدة الملك.

ويتصور بعض المؤرخين المعاصرين بحق، أن جيش بطرس الجديد لم يهزم في واقعة نارفا لسبب بسيط هو أن هذا الجيش لم يكتمل بعد بشكل حقيقي، وإن سلك الضباط الذي تشكل على عجل مكون من مرتزقة ماجورين من حثالات الجيوش الأوربية، وكانت ثقة بطرس بهؤلاء الأشخاص الذين اتضح جبنهم، وخيانتهم في المواقف العصيبة، خطأ فاحشاً من جانبه بالطبع.

لقد غدت الهزيمة في نارفا امتحاناً قاسياً، فكان يجب تصحيح الأخطاء على جناح السرعة، وعمل القيصر بحزم، وسرعة، وبلا رحمة، وانتقلت عدوى نشاطه إلى الآخرين، فتحرك الجميع، ومن حسن الحظ أن الملك السويدي المغرور قد وفر له الوقت الذي هو بأمس الحاجة إليه لحل المهمات الصغيرة والكبيرة التي لا نهاية لها.

وتلقى الأمير ريبنين أمراً صارماً من القيصر بإعادة الأمور إلى نصابها في الفيالق التي تضررت في معركة نارفا، ونفذ ريبنين الأمر، فإن ٢٢ ألف جندي تحولوا إلى جيش متمكن من القتال، وبأمر من القيصر أيضاً جرى تعزيز نوفغورد، وبسكوف، وديرييتشيرسكي (على الحدود مع استلانديا، شمال غربي بسكوف)، وتحويلها إلى قلاع، فإن بطرس يخشى هجوماً من السويديين (وبالمناسبة فقد اتضح عاجلاً أن تلك المخاوف لا موجب لها)، وأشرف بطرس بنفسه على إنشاء الاستحكامات في نوفغورد وبسكوف، وبالإضافة إلى الجنود والخيالة أشرك بطرس في هذا العمل حتى الرهبان والقساوسة «كل مراتب سدنة الكنائس من رجال ونساء»، وقد ألغيت الصلوات في كنائس الأبرشيات خلال تلك الفترة.

وأعلن عن تجنيد وجبة جديدة في موسكو، وجرى تجنيد الجميع، حتى الألقان، وعجل بطرس في بناء المصانع في الأورال، إذ كان لابد من صنع المدافع بسرعة، وأذيع على الملأ المرسوم الشهير الخاص بصهر نواقيس الكنائس، وصنع المدافع منها، وصار هذا النشاط المحموم يعود بثمار سريعة، فقد ازداد عدد الأفواج، وتزودت بأكثر من ٣٠٠ مدفع، وفي أواخر

كانون الثاني (يناير) ١٧٠١، بعد عام ونيف من هزيمة نارفا، كتب بلير سفير الإمبراطورية في موسكو إلى عاهله، بأن الجيش الروسي صار أقوى من السابق ثلاث مرات.

ونجد بطرس في كل مكان، يتنقل من عربة إلى أخرى، ويناام ويتناول الطعام وهو في الطريق، ويرهق قواه وقوى البلد كله، ويؤمن مستلزمات النصر المنشود، ويراه المرء تارة في موسكو وفورونيغ، وتارة في نوفغورود وبسكوف، وتارة في أرخانجلسك، ويرجي العائدة إلى بولونيا.

ولم يكن كارل الثاني يرى شيئاً من ذلك، أو أنه لا يريد أن يراه، فقد أسكره الانتصار في نارفا والانتصارات الأخرى أثناء غزواته لساحل البلطيق الجنوبي، ففارقه نهائياً التقييم الواقعي للموقف، وهو يرى أن الجيش الروسي لا يستحق اهتمام قائد عظيم مثله:

- لا أجد لذة في محاربة الروس، لأنهم يفرون، ولا يقاومون كالآخرين.

لكن الآخرين لا يشاطرونه رأيه هذا، فحتى الجنرال ستينبوك، وهو من أقرب معاونيه، يقول عن سيده بقلق: «الملك لا يفكر بشيء غير الحرب، ولم يعد ينصت إلى نصائح الغير، ويتظاهر بأن الخالق يلهمه رأساً بما ينبغي عليه أن يفعله».

كان الكثيرون في أوروبا ينظرون إلى الأحداث المرتبطة بالحرب بين روسيا والسويد بمنظار كارل الثاني، ويبذل حكام بريطانيا وهولندا وفرنسا قصارى جهدهم لكسب ود الملك، والتحالف معه، ويعبرون عن إعجابهم بانتصاراته، وببالغون في تقدير مواهبه الحربية، وتعالى في جوقة المديح أصوات القائدين العظميين الإنجليزي الدوق مالبرو، والنمساوي أوجين حاكم سافوي، وصاروا يتذكرون غوستاف أدولف والد جد الملك السويدي، القائد المظفر الحاقد على روسيا.

كان المشرفون على الدبلوماسية السويدية والأوروبية عموماً، يعتقدون أن روسيا المغلوبة يجب أن تركع أمام الملك الغالب، وكتب ماتيفيف إلى بطرس من هولندا: «إن الأسياد هنا ينتظرون الصلح لأن أفضل قواتكم قد دحرت... وليس بالإمكان تدريب الجيش اللازم في القريب العاجل»، وكان بطرس يعرف بعض خصائص هذه الدبلوماسية، فد«البعثة الكبرى» فتحت عينيه على أمور كثيرة، عندما كان لا يزال دبلوماسياً غريباً سريع التصديق، وقد كسب الخبرة في تسيير الدبلوماسية التي تميزت بالحسابات المصلحية السافرة، والغدر والدسائس وما إلى ذلك، واستوعب بطرس بعض تلك الطرائق بوصفه نفعياً، لكنه ظل أحياناً على نفس الثقة الساذجة، حيث التزم بأبسط قواعد اللياقة، وبالمبادئ الحقوقية التي أخل بها الآخرون، فعندما اندلعت الحرب ضد السويد سمح بطرس لممثليها الدبلوماسيين بالعودة إلى وطنهم، بينما تصرف كارل الثاني عشر على نحو آخر، فأمر منه سجن السفير الروسي خيلكوف والعاملون معه، وكذلك جميع التجار الروس.

وبدأت أبرز الدول الأوروبية - بريطانيا وهولندا والنمسا وفرنسا - الحرب من أجل التركة الأسبانية، ففي الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٠٠، توفي كارل الثاني ملك أسبانيا، وبموجب وصيته عين فيليب الخامس دوق انجوي، وحفيد لويس الرابع عشر حاكماً جديداً لآسبانيا، وكان لويس الرابع عشر يميل إلى اعتبار أسبانيا وممتلكاتها الشاسعة جزءاً من مملكته:

- لم تعد البرنيه موجودة بعد الآن.

كانت هذه الكلمات التي تناقلتها الأسطورة تجسد السياسة التوسعية «للملك - الشمس»، واستمرارها في مطلع القرن الجديد، وقد قوبلت طبعاً بالرفض من جانب الجيران والحلفاء، ففي ٧ أيلول (سبتمبر) ١٧٠١، ظهر الحلف الكبير المكون من النمسا وبريطانيا وهولندا، وفي أيار (مايو) وأيلول (سبتمبر) من العام التالي أعلنت هذه الدول الثلاث الحرب على فرنسا.

وفي هذا الموقف المعقد حاول بطرس ودبلوماسيوه أن يجسوا النبض، ويتأكدوا من إمكانية التصالح بين روسيا والسويد، ليبينوا بالدرجة الأولى لأوروبا أن بطرس لا يعتبر مغلوباً، وقام غوليتسين في فينا بمحاولة من هذا النوع، إلا أن اللقاء مع الإمبراطور ليوبولد الأول، والمفاوضات مع رئيس الوزراء كاونيتس لم تعط أية نتيجة، فالدبلوماسيون الأوروبيون لا يعيرون اهتماماً لبطرس وروسيا، ويحتقرون الدبلوماسيين الروس، ويسخرون منهم في السّر والعلانية، وكتب غوليتسين عن ذلك إلى بطرس يقول: «الوزير الأول كاونيتس الذي يتوقف عليه كل شيء لا يريد أن يتكلم معي، ولا يمكن التعويل على الآخرين، فهم يسخرون منا».

وتشكى غوليتسين إلى مدير العلاقات الخارجية غولوفين من عدم وجود الأموال للرشوة (أموال الخزينة في روسيا لا تكاد تكفي للتحضير للحرب، أو على الأصح للاستمرار فيها):

- أنت لا تعرف الناس هنا، زوجات الوزراء، وليس الوزراء أنفسهم، يأخذن الهدايا دون حياء، فليس عندي غير الخطب الموسكوبية.

رفض كاونيتس طلب الوساطة، واستفسر المستشار من السفير غوليتسين: ما هي شروط الصّح التي تريدها روسيا؟

روسيا تريد الحصول على جزء من ليفونيا، على امتداد نهر ناروفا مع مدن نارفا، وأيفانغراد، وريفيل، وكوبوريه وديريت، وحرية التجارة في بحر البلطيق من خلال هذه المدن.

- يستحيل أن يوافق ملك السويد على ذلك.

وعندما نقلت تلك الشروط إلى كارل الثاني عشر رفضها بالطبع رفضاً باتاً، وفي العام ذاته، ١٧٠١، اتسمت الاتصالات الدبلوماسية مع النمسا والدانمرك بالانتعاش، لكنها ظلت عقيمة، فالبلاط النمساوي تارة ينشغل بزفاف تظاهري لولي العهد من أميرة روسية؛ وتارة يخوض في مباحثات عن تربية الأمير الكسي، ابن بطرس، في فينا، وتارة يوقع المبعوث

الدانمركي هينس اتفاقية سرية بشأن إرسال خمسة أفواج من الدانمرك لمساعدة روسيا، وهي الاتفاقية التي ظلت حبراً على ورق؛ لأن الدانمرك في الواقع دخلت الحرب الأسبانية، ووجهت نصف جيشها ضد فرنسا.

وفي هذه الظروف أخذ بطرس يتوودد إلى أغسطس من جديد، رغم معرفته بنوايا هذا المستجدي الذي هو بحاجة إلى دعم من بطرس ليصبح ملكاً وراثياً لبولونيا، حتى يصفى الديمقراطية فيها على الطريقة الأرستقراطية، إلا أن الكثيرين من البولونيين كانوا يتجاهلونه، ولا يعتبرونه ملكاً عليهم، ولم يوافق كارل الثاني عشر على المفاوضات السلمية، فهو يكره أغسطس الثاني، أما بطرس فهو بالعكس يتشبهت بعد واقعة نارفا - بحليفه غير المأمون، ويستفيد هذا الأخير من هذه الحالة.

وفي شباط (فبراير) ١٧٠١، التقى بطرس وأغسطس الثاني في موضع يبرجي في كورليانديا، وكما كان الحال في رافا الزوسية في حينه، أخذاً يلهوان ويتسليان، وفي الفترات بين الولايم يتباحثان، ذات مرة، بعد سكر شديد، غط الملك في نوم عميق، وفوت صلاة الظهر، أما بطرس فقد نهض مبكراً كعادته، ولما كان الصديق الحليف لا يزال نائماً مضى القيصر على عجل إلى الكنيسة الكاثوليكية، واطلع باهتمام على الطقوس الكاثوليكية.

وبعد المفاوضات أكد بطرس وأغسطس التزاماتهما القديمة، ووقعا معاهدة جديدة، والتزم الطرفان بمواصلة الحرب ضد السويد، وعدم توقيع صلح انفرادي معها، بلغ القيصر مراده، لكنه اضطر إلى دفع الثمن، حيث خصص لدعم أغسطس الثاني فيلق مشاة من ١٥-٢٠ ألفاً، وسدّد طوال عامين معونة سنوية قدرها ١٠٠ ألف روبل، ووافق على انضمام ليفلانديا واستلانديا إلى بولونيا، وبغية استمالة بولونيا إلى الحرب وعد بتخصيص ٢٠ ألف روبل لأعضاء مجلس الشيوخ فيها، وتلك شروط ليست سهلة، وخصوصاً المالية منها، فإن موجودات خزينة موسكو والقروض من الأديرة والأثرياء ما كادت تكفي لتسديد المبلغ الأول إلى أغسطس الثاني.

وقابل بطرس في بيرجي مجموعة من الإقطاعيين البولونيين، وردًا على اقتراحاته بشأن مشاركة الدولة البولونية في الحرب مقابل ليفلانيا، طالب أولئك بكيف وأراض روسية أخرى، ولم يتم اتفاق بهذا الشأن طبعًا، إلا أن القيصر أعرب للوجهاء البولونيين مع ذلك عن مشاعر الود:

« ليس صحيحًا التفكير بأنني أردت أن أساعد الملك ضد حرية بولونيا، فأنا كجار، لست بحاجة إلى ذلك مطلقًا، ولو كنت أنوي شيئًا ضد بولونيا لانتهزت فرصة ازدواجية السُلطة العاصفة، ولكنني حتى في مثل هذه الحالة احتفظت بالصدقة، وسأحاول مضاعفتها في المستقبل.»

واستقبل بطرس مبعوث فرنسا في بولونيا، إيرون الذي استفسر عما إذا كانت روسيا تستطيع أن تقدم إلى لويس الرابع عشر مساعدة عسكرية في الحرب الأسبانية، وردًا على ذلك سمع كلامًا عن الرغبة في العلاقات الودية بين روسيا وفرنسا، وتطوير التجارة بينهما.

وعندما عاد بطرس إلى الوطن واصل استعداداته النشيطة للاستمرار في العمليات الحربية، وفي نيسان (أبريل) ١٧٠١، أرسل فيلقًا من ٢٠ ألف شخص بقيادة ريبنين إلى ضواحي ريغا، ليلتقي بالجيش السكسوني، وشعر قائد هذا الجيش الفيلدمارشال شتيناو بالارتياح، واستخدم الجنود الروس في تشييد التحصينات.

وكان كارل الثاني عشر آنذاك ينتظر وصول الإمدادات في ضواحي ديربت، وظل هناك ستة أشهر، ثم زحف على ريغا بأقصى السرعة، كعادته، ودحر السكسونيين بشكل شنيع، ولم يشارك الروس في القتال، وسرعان ما عادوا إلى بسكوف، وانسحبت الأفواج السكسونية المدحورة، وانتشى «السويدي» لدرجة أكبر بعد هذا الانتصار على محاربين مجريين ماهرين، كما بدا السكسونيون في أنظار أوروبا، لذا عزم على الزحف على روسيا، إلا أن «الجنرالات... أفنعوا ملكهم بالعدول عن ذلك»، كما يقول شاهد عيان هو شليبينباخ أحد أبرز

القادة العسكريين السويديين، وانطلق هؤلاء الجنرالات، والملك نفسه من ضرورة دحر السكسونيين حتى النهاية باعتبارهم أقوى من الروس، ومن ثم الشروع بمقاتلة هؤلاء الأخيرين، وأخذ كارل الثاني عشر يحوم حول الحدود الروسية الغربية، في بولونيا هذه المرة، لاسيما وأن أغسطس الثاني الذي يبغضه وقع هناك، في بيرجي، اتفاقية جديدة مع روسيا، وقال المؤرخ الروسي، الشهير س. سولوفييف بدقة: «كان أغسطس حليفاً ثميناً بالنسبة لبطرس ليس بقوة السلاح، بل لأنه جعل الملك السويدي يبغضه، ويرتاب فيه لأقصى حد، لقد شاغل هذا العدو الرهيب في ذلك الزمان، وألهاه عن الحدود الروسية، ووفر الفرصة للقيصر كي يعزز قواته، ويدربها على قهر السويديين».

وتورط كارل الثاني عشر في بولونيا، فلم يتمكن من القتال على جبهتين، وظل بطرس يعزز جيشه ويعبيء كل موارد البلاد.

القيصر وروسيا بحاجة إلى النصر، وإن كان ضئيلاً في البداية، لترتفع معنويات الروس، والجيش خصوصاً، ولكي تغير أوروبا رأياها في «الهمج» الشرقيين.

صارت عمليات السويديين في بولونيا بنجاح كبير، وليس في بولونيا وحدها، فقد حاولوا أن يهاجموا أرخانجلسك بجزا، ليحرقوا الميناء الوحيد الذي يربط روسيا بأوروبا، وتم صد هجوم السفن السويدية، وتكبدت خسائر غير قليلة، وأسرع بطرس إلى هناك ليتخذ إجراءات عاجلة، ويقوي تلك المدينة التي تتسم بأهمية بالغة للدولة.

وكان القيصر في الوقت ذاته يتردد على فورونيج كثيراً، فهنا تبنى سفن جديدة، وترمم السفن القديمة التي تتلف بسرعة في المياه العذبة، ويتابع القيصر كل شيء بعين ساهرة، فالأسطول ضروري لمقاومة العثمانيين؛ لأن المعروف عن السلطان العثماني أن موقفه من المعاهدات السلمية نفعي جداً، ويمكن أن يتخلى عنها في الحال، ويشن الحرب،

وكان بطرس قلقًا بسبب ذلك، فنقل ابراكسين، وهو من أقرب أنصاره، من أرخا نجلسك إلى آزوف، وأخذ يبعث إليه التوجيهات بلا انقطاع: «خذ حذرًا في آزوف، وأكثر من ذلك في تاغانروغ. وعزز دفاع المنطقة» و«خذ حذرًا من الجانب العثماني».

وأرسل بطرس ممثله بيوتر تولستوي إلى الأستانة، صحيح أن هذا الرجل كان مرتبطًا بال ميلوفسكي وصوفيا أثناء أحداث ١٦٨٢، لكن بطرس يقدر رفيع التقدير فطنته ودهاءه وشطارته، وقال له القيصر ذات مرة، في لحظة من التصريح وطيبة النفس: «يا هذا الرأس كانت رقبتك ستقطع، لو لم تكن ذكيًا إلى هذا الحد».

وبذل هذا الرجل جهده بالخدمة الصادقة ليحظى بثقة القيصر. وقد وفق في ذلك الآن، وسيوفق فيما بعد، فقد قضى في بلاط السلطان العثماني سنين طويلة، ولعب دورًا مهمًا في صيانة الهدنة التي وقعها أوكراينتسيف مع العثمانيين في عام ١٧٠٠، وفهم بسرعة أن الدور الحاسم في ذلك تلعبه قدرة روسيا المتزايدة في البحر الأسود:

- أكثر ما يخشونه يا صاحب الجلالة هو أسطولك البحري.

ومن حسن الحظ أن قلق بطرس ومخاوفه لم تكن مبررة، فأخبر بذلك ابراكسين في آزوف قائلاً بارتياح: «لا نتوقع حربًا مع الأتراك؛ لأن السلطان أكد على الصلح برغبته».

وبالمناسبة كان مزاج السلطان يتبدل بسرعة كبيرة، وتحلى بيوتر تولستوي بالصبر والشطارة ليحمله على العدول عن العمليات الحاسمة ضد روسيا، وفي تلك الأثناء كان القيصر يتابع الأسطول في فورونيج وأزوف.

وغدا الحصول على النقود شغلًا شاغلًا لبطرس، ومشكلة مؤلمة ممضة، ذات مرة أخذ يفكر في ذلك طويلًا، ليوم كامل تقريبًا، دون أن يجد مخرجًا، ودخل عليه الأمير رومودانوفسكي أو بروزورفسكي (اختلف الرواة بهذا الخصوص)، فبادره القيصر قائلاً:

- الخزينة خاوية، وليس عندنا ما ندفعه للقوات، وليست عندنا مدفعية، في حين سنحتاج إليها قريباً، فما العمل؟ هل نأخذ ذهباً وفضة من كنوز الأديرة ونسك منها النقود؟

- تلك قضية حساسة، يجب أن نفكر في مخرج آخر.

- ما هو؟

اقتاد الرجل القيصر إلى مستودع سري في الكريملين، وكانت هناك أكداًس من الأجمة والأنية المفضضة والمذهبة، النقود الفضية من فئات قليلة، والقطع النقدية الهولندية.

وحكى الأمير للقيصر المندesh الرواية التالية: «عندما كان والدك، القيصر الكسي ميخائيلوفيتش يتوجه في حملات في أوقات مختلفة، كان يسلمني، بسبب ثقته بي، النقود والكنوز النافلة لكي احتفظ بها، وفي أيامه الأخيرة استدعاني وأوصاني بالأقدمها لأحد من ورثته إلا إذا كانت هناك حاجة ماسة إلى النقود أثناء الحرب».

يصعب الجزم بأن هذا هو ما حدث بالفعل، وبهذه الصورة في مستودع الكريملين السري في ذلك اليوم، كما يصعب الجزم بأن هذا الحديث جرى عموماً، وعلى أية حال فإن «الحاجة الماسة» إلى النقود كانت موجودة بالفعل، وإن دارصك النقود في السنوات الأولى من الحرب زادت من انتاجيتها، وقللت من وزن القطع النقدية الفضية: فقبل الحرب كانوا يصكّون منها ٢٠٠-٥٠٠ ألف روبل في العام، بينما صكّوا منها حوالي مليونين في ١٧٠٠، وأكثر من ٤٠٥ ملايين روبل في عام ١٧٠٢، وبهذه العملية المشبوهة (وربما استخدموا فيها كنوز المستودع السري الأنف الذكر) تمكنوا من رتق خروق الميزانية، ولكن لأمد قصير، فقد اتخذت إجراءات أخرى لهذا الغرض، فإن الموظفين «المريحين» ابتكروا ضرائب جديدة، فاستحقوا غضب الناس، وأنفقت أموال طائلة على الجيش وعلى استخدام الضباط الأجانب، وعلى بناء أسطول البلطيق الذي سرعان ما بدأ آنذاك.

وبعد فترة وجيزة نسبياً من الهزيمة في موقعة نارفا أمر بطرس جنرالاته بتنشيط العمليات الحربية، ففي ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٠٠، أي بعد أسبوعين ونيف، أصدر أمراً إلى شيريميتيف الذي كان حذراً جداً: «تقدم إلى أبعد لإلحاق المزيد من الخسائر بالعدو، ولا عذر لك، لا سيما وإن عدد الرجال كبير، ثم إن الأنهار والمستنقعات تجمدت، ولن يستولي عليها العدو، لذا أكتب إليك الآن عن ذلك كي لا تتحجج رافضاً».

وعندما دخل الجنود الروس في اشتباك مع السويديين أخذوا يتخلصون بالتدريج من التردد والوجل، وكان شيريميتيف المتباطئ الذي يحسب لكل شيء حساباً، قد توجه إلى المعركة ولديه من الجنود ضعف أو ثلاثة أمثال.

وكانت الانتصارات الأولى قد قوت المعنويات، كما حدث، مثلاً، في معركة ارخانجلسك صيف ١٧٠١، عندما داهمت تحصيناتها سبع سفن سويدية تحمل العلم الإنجليزي والهولندي (للتمويه)، لكنها منيت بالهزيمة، وفقدت سفينتين، وفي أواخر كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه شن شيريميتيف على رأس فيلق من ١٧ ألفاً هجوماً على فيلق من ٧ آلاف شخص بقيادة شليبينباخ، قرب قرية أيرستفير بضواحي ديربت (في ليفونيا)، وفقد السويديون ثلاثة آلاف شخص، وأسر الروس ٣٥٠ شخصاً، واحتفلت موسكو بالنصر بإطلاق الألعاب النارية، ووزعت المكافآت على كل المشاركين في المعركة حتى الجنود، ومنح شيريميتيف رتبة الفيلدمارشال جنرال، ووسام أندري بيرفوزفاني، وأعلن بطرس مبهتجاً: (ها نحن قادرون أخيراً على ضرب السويديين).

وبعد ستة أشهر ونيف أحرز الروس انتصاراً جديداً، ففي ١٨ تموز (يوليو) ١٧٠٢، دحر شيريميتيف من جديد شليبينباخ في معركة غوميلسغوف هذه المرة، وفقد هذا الأخير خمسة آلاف قتيل، و٣٠٠ أسير، وكل مدفعيته، ويمكن مقارنة ذلك تماماً بما حدث في موقعة نارفا قبل عام ونصف.

واعتباراً من خريف العام نفسه أخذ بطرس شخصياً يقود العمليات الحربية في منطقة اينغريا (أيجورا)، وأخذ الروس بالتدريج يطهرون الأراضي الواقعة على نهر نيفا من السويديين، ومن أواخر أيلول (سبتمبر)، بدأ قصف نوتيبورغ القلعة المنيعة عند مصب نهر نيفا من بحيرة لادوجسكويه، وهي مطوقة بأسوار سميكة وعالية، وفيها مدافع كثيرة، ووجه بطرس إليها ١٤ فوجاً ظلت تقصفها طوال أسبوعين.

ولم تتحمل زوجات الضباط السويديين، فأرسلت زوجة القومندان طبالاً إلى معسكر الروس يحمل التماساً من النساء إلى شيريميتيف:

« نتوسل إلى السيد الفيلدمارشال أن يسمح للنساء بمغادرة القلعة لأنهن قلقات جداً من النار والدخان، ومن سوء الحال»، وردّ عليهن كابتن المدفعية بطرس ميخائيلوف، أي القيصر نفسه، مازحاً:

« لا تجرأ على إيصال هذا الطلب لأنني متأكد من أن السيد الفيلدمارشال لن يسمح لهن بأن يكتتبّن لفراق أزواجهن، وإذا أردن مغادرة القلعة فليأخذن معهن أزواجهن».

لم يوافقوا في نوتيبورغ على هذا النوع من الدعوات المهذبة للاستسلام، واضطر الروس إلى اتخاذ إجراءات أكثر حزمًا، ففي ١١ تشرين الأول (أكتوبر) بدأ الهجوم الذي استمر ١٢ ساعة، وتم تحرير المدينة الروسية العريقة أوريشيك (نوتيبورغ)، وأشاد أحد شهود العيان من الأجانب ببسالة الجنود الروس قائلاً: «إنه لمدهش حقاً كيف استطاع الروس أن يرتقوا مثل هذه القلعة، ويستولوا عليها بواسطة سلالم الحصار وحدها».

وقال بطرس بهذا الخصوص: «الحقيقة كانت هذه الجوزة متينة، لكننا حطمانها والحمد لله، وأدت مدفعيتنا واجبها بأروع شكل».

واستبدل بطرس اسم قلعة نوتيبورغ فجعله شليسيلبورغ (المدينة المفتاح)، وكانت بالفعل تشغل موقعاً حساساً بأهمية المفتاح، واستفاد

القيصر من موقعها هذا، ففي آذار (مارس) من العام التالي، وصل إلى هنا ليتحرك من شليسيلبورغ بواسطة نهر نيفا إلى مصبه في البحر، وتوجد هنا قلعة أخرى ذات موقع حساس هي نينشانس.

وحان وقت بدء الحصار، وما كادوا يبدأونه حتى استسلمت الحامية.

وبعد أسبوع، في ٧ أيار (مايو) تحقق أول نصر مائي: لم يكن انتصاراً كبيراً لكن بطرس فرح له أعظم الفرح، حقاً، فإن مهاجمة سفينتين بحريتين بالقوارب، وكسب المعركة بهذا الهجوم الجريء الذي يتميز بشيء من المغامرة من حيث بسالته تبعث على الفرح بالطبع، وتشكل السفينتان جزءاً من عمارة نوميرس، التي كانت تمخر مياه الخليج الفنلندي، وفي ٥ أيار دخلت مصب نيفا، ولم يكن السويدون قد عرفوا بعد باستسلام قلعة نينشانس، وانتهم بطرس الفرصة بالكامل، وكتب بنفسه واصفاً المعركة:

«وصلت إلى المصب عمارة العدو بقيادة الفريق البحري السيد نومبرس، وعندما علم سيدنا المارشال بذلك أرسلنا في ثلاثين قارباً، وفي ٧ أيار وصلنا إلى المصب، وتفحصنا العدو بوضوح، وفي قتال مدبر استولينا على فرقاطتين، إحداهما، «غيدان»، بعشرة مدافع، والأخرى، «أستريل»، بثمانية مدافع، وأربع عشرة كوة، ولما كان من الخصوم قد تأخروا في إعلان الاستسلام، كان من الصعب تهدئة الجنود الذين اقتحموا السفينتين، وكادوا يقتلون الجميع، ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٣ شخصاً، واشتركت في هذا الحادث ثمانية قوارب فقط.»

كان لابد لهذا النصر اليسير على السفن البحرية بواسطة القوارب والبنادق والقنابل اليدوية من أن يرفع المعنويات، «نصر منقطع النظير»، هذا ما كان يكرره بطرس فرحاً بمناسبة هذه «القضية» في مصب نهر نيفا، كيف لا يفرح وهو الذي أعد العملية ونفذها بنفسه، ترك مجموعة من القوارب في المجرى الأسفل للنهر لتحويل دون انسحاب الفرقاطين

السويديتين إلى البحر، وهجم عليهما بمجموعة أخرى من القوارب من الجهة المقابلة، حتى ضيق الخناق على العدو من الجانبين، وقاد بطرس نفسه ومينشيكوف عمليات كلتا المجموعتين، وأشاد كبار القادة بشجاعتهما وحسن قيادتهما، وكتب القيصر الكابتن عن ذلك في إحدى رسائله باعتزاز:

- ومع أننا لا نستحق الثناء إلا أن السيد الفيلدمارشال، والسيد الأميرال قلداني أنا والسيد الملازم (مينشيكوف)، وسام القديس أندري.

بهذه الصورة تسلم القيصر وسام أندري بيرفوزفاني الذي استحدثه نفسه قبل قليل، وبمناسبة النصر أمر بإعداد مدالية كتب عليه «المستحيل يتحقق».

وكان بطرس الذي شارك شخصياً في حصار نوتيبورغ، والقتال في مصب نيفا، وتعرض لأخطار كثيرة راضياً عن نتائج العمليات الحربية في ١٧٠١-١٧٠٢، فقد سيطر الروس المنتصرون على كل الأراضي المحيطة بنهر نيفا من روافده حتى مصبه، ويعود فضل كبير في ذلك للقيصر، مع أنه لا يبرز دوره، ولا يضعه في مرتبة الصدارة، بل على العكس يخفيه، ويقلل من شأنه ويقول «نحن»، و«قواتنا» وما إلى ذلك عندما يتحدث عن النصر، فالنصر في رأيه نتيجة لتضافر جهود أفراد الجيش من الجنود حتى الفيلدمارشال.

وقد أدرك بطرس الأهمية البالغة لاستعادة الأراضي التي دحر فيها الكسندر نيفسكي الغزاة السويديين في حينه (معركة نيفا عام ١٧٤٠ في إطار أراضي نوفغورود العريضة)، حتى أنه أرسى في تلك الأيام، في آيار (مايو) ١٧٠٢، أساس قلعة سان بطرسبورغ على جزيرة لوست أيلاند (جزيرة المرح) في مصب نيفا، وغدت تلك القلعة فيما بعد العاصمة الجديدة لروسيا، كانت لتلك القلعة الخشبية التي بناها الجنود ستة حصون، وجنبها شيدوا منزلاً صغيراً من جذوع الأشجار لبطرس، لا يزال قائماً حتى الآن وتؤمه جموع السياح.

وعين بطرس رفيقه المحبوب مينشيكوف متصرفاً في القلعة الجديدة،
وسرعان ما تلقى القيصر منه التقرير التالي:

- إدارة المدينة على ما يرام، وصل إليها عاملون كثيرون من المدن
الأخرى، ولا يزال عددهم في ازدياد، سنعمل، بإذن الله، في إنجاز المهمة
(بناء بطرسبورغ في أغلب الظن - ملاحظة المؤلف)، ومما يؤسف له أن
الشمس هنا عالية جداً.

ويبدو أن المتصرف الجديد لم يكن قد رأى الليالي البيضاء مطلقاً،
وفيما بعد عرف مع رفاقه ما هو أسوأ من ذلك، فالأمير ريبنين الذي رابطت
أفواجه على ضفة النهر تشكي ابتداء من شهر آب:

- يا صاحب الجلالة، الطقس سيء جداً من جهة البحر، فهو يدفع المياه إلى
المكان الذي ترابط فيه أفواجي حتى تبلغ المخيم، وأمس في منتصف الليل
تبلل الكثيرون من طباخي فوج بريوبراجينسكي مع أدواتهم، ويقول
الأهالي إن هذه المنطقة تغمر بالمياه دوماً في مثل هذه الأوقات.

وفيما بعد رأى بطرس من منزله مراراً مثل هذه المشاهد، فيضان النهر
والقوارب «تمخر» الشوارع والناس على سطوح، المنازل وعلى الأشجار،
لكنه لم يأسف، بل على العكس يشعر بالفرح، لأنه يعيش في هذه
«الفردوس» التي كتب عنها إلى بعضهم دون أثر للشك أو الفكاهة:

- نعيش هنا في جنة حقيقية.

- لا يسعني إلا أن أكتب لك من الفردوس هنا.

«الفردوس» التي وقع بطرس في هواها يجب أن تغدو، في رأيه، بوابة
للبلطيق وأوربا، وستصل إليها البضائع اللازمة من جميع الأرجاء، لكن
مؤسس بطرسبورغ لم يخصص لها دور الميناء التجاري فقط، كما أن
التاريخ نفسه لم يخصص لها هذا الدور وحده، بعد عام نعت القيصر في
رسالة إلى مينشيكوف القلعة الجديدة والميناء «بالعاصمة»، وأمر في عام

١٧٠٤ بإرساء أساس قلعة بحرية لحمايتها من جهة البحر، وبنيت لهذا الغرض قلعة كرونشولوف (كرونشادتت حاليا) على جزيرة كوتلين على بعد ٣٠ كيلومترا ونييف غربي بطرسبورغ، وأخذ القيصر يتردد على هذه الجزيرة، ويتابع إنشاء التحصينات، وقال بارتياح هذه المرة أيضا:

- كرونشادتت حاليا في وضع يجعل العدو يتهيب من الاقتراب منها من جهة البحر، والا سندمر سفنه شذر مذر، وسننام في بطرسبورغ مطمئنين.

وصار بناء الأسطول في البلطيق، ولأجل البلطيق شغله الشاغل، فهو واثق من استحالة حماية ما تحقق إلا بهذا الأسطول:

- الحاكم الذي يمتلك قوات برية فقط له يد واحدة، أما الذي يمتلك أسطولا كذلك فله يدان.

وبإشراف القيصر بدأ في حوض أولونيتس لبناء السفن في ١٧٠٣، إنشاء ٤٣ سفينة، وأبحر القيصر باعتزاز على سفينة «شتاندرات» («الراية»)، باكورة أسطول البلطيق الروسي، إلى بطرسبورغ عاصمته الثانية التي كانت ستغدو في القريب العاجل العاصمة الأولى، وهنا، في مصب نيفا، أرسى أساسا لحوض بناء السفن، هو حوض «الأدميرالية» الذي لعب فيما بعد دورا كبيرا للغاية في تطوير الأسطول الروسي، وبدأت أعمال هذا الحوض في عام ١٧٠٥، وفي نسيان (أبريل) من العام التالي أنزلت إلى الماء هناك السفينة الأولى.

وعلى ضفاف نيفا بدأ تحويل روسيا إلى دولة بحرية حقيقية، فهنا بالذات فتح بطرس «نافذة أوروبا» التي كتب عنها الشاعر بوشكين بعد أكثر من مائة عام، كان بطرس يبني للحاضر وللمستقبل، وتحفظ الكتب برواية عن جوزات البلوط التي غرسها في بطرسبورغ، فقد ابتسم أحد الوجهاء بسخرية آنذاك، فاشتاط القيصر غضبا:

- مفهوم، تتصور أن العمر لن يطول بي حتى أرى أشجار البلوط الباسقة، هذا صحيح. لكنك أحمق، إنني أقدم مثالا للأخريين كي يفعلوا الشيء

ذاته حتى يبني أحفادنا بمر الزمن سفناً من تلك الأشجار، إنني لأعمل من أجل نفسي، بل لمنفعة الدولة في المستقبل.

ولعل بطرس كان أفضل من الجميع في التطلع إلى المستقبل:

- إذا أطال الله في عمري، ومنحني الصحة والعافية، فستكون بطرسبورغ امستردام الثانية.

تلك هي أمنية القيصر الشغيل، كان يفرح لأدنى نجاح في المراحل الأولى، وكان معاونوه يشاطرونه مشاعره، فعندما وصلت إلى مصب نيفا في خريف ١٧٠٣، سفينة أجنبية محملة بالملح والنيبذ أجزل متصرف بطرسبورغ مينشيكوف العطاء لكل ملاحها.

وبلغت مسامع ملك السويد انتصارات بطرس في أينغريا، وتحرير وتأسيس المدن، فلم يحزن الملك إطلاقاً:

- فليواصل القيصر العمل في انشاء المدن الجديدة، أما نحن فلا نريد سوى الاحتفاظ بشرف احتلالها فيما بعد.

لكن بطرس كان يحرز انتصارات جديدة، وهو واثق من نفسه، ومن أفضل الإخصائيين المعاصرين بالشؤون الروسية في أوربا: «لا يسع المرء إلا أن يعجب بتحمل بطرس، ومثابرتة عندما تشبث بهذه الأماكن البائسة العليلة التي فصلها عن الغرب آنذاك الاحتلال السويدي لبولونيا، فقرر بطرس، بسبب خوفه على مصير جيوشه، أن ينشئ فيها عاصمته، ليست الأمثلة كثيرة على هذا النوع من الثقة بالمستقبل».

وحاول السويديون زحزحة الروس من شواطئ نيفا، وسواحل الخليج الفنلندي، وتوجهت فصيلة الجنرال كروتغيورت إلى بطرسبورغ، واقترب منها، وتحرك بطرس لمواجهةها، نحو نهر سيسترا، على رأس أربعة أفواج، ففر العدو من ساحة المعركة تحت ضربات تلك الأفواج.

وفي عام ١٧٠٤، شن الفيلدمارشال شيريميتيف حملتين موفقتين على استلانديا وليفلانديا، وشنّت أفواجه هجوماً استولت فيه على مدينتين

روسيتين عريقتين، هما كوبوريه ويام، وحاصرت قواته مدينة أخرى أسسها الروس القدامى أيضًا، هي مدينة يوريف التي كانت تسمى في تلك الحقبة «ديريت»، لكن الحصار طال واخفق، وأسرع بطرس نحو ديريت من ضواحي نارفا حيث كان قد شارك في حصار المدينة، ووصل بطرس في ٣ تموز (يوليو)، وتنفذ القلعة من بعيد ولم يكن راضيًا من الموقف، فإن شيريميتيف يستعد لمهاجمتها من جانب أسوارها المنيعة العالية، دون أن يلاحظ أن الهجوم أفضل إذا جرى من جانب الأسوار البالية الضعيفة التحصين.

وبأمر من بطرس، فتحت المدفعية مساء ١٢ تموز ثلاث ثغرات في هذه الأسوار، واقتحمها المشاة الروس من تلك الثغرات، واندفعوا إلى التحصين الإضافي، واستولوا على خمسة مدافع، وجهوها إلى داخل القلعة، وقصفوها، ولم يلاحظوا في صخب المعركة أن الطبالة السويديين يحاولون أن يوصلوا بقرع الطبول اقتراحًا بالمفاوضات، فقد قُتل أربعة منهم الواحد تلو الآخر، وأخيرًا تمكن نافخ الصور من إعطاء الإشارة، فبدأت المفاوضات، كان القتال قد استغرق ليلة كاملة تقريبًا.

وأثناء المفاوضات، طلب قومندان ديريت السويدي السماح بخروج حاميته كلها، بجنودها وضباطها وعوائلهم من المدينة، وتزويدهم بمؤونة تكفي لشهر، ولأمه بطرس قائلًا بأن «هذه الطلبات» جاءت متأخرة، وكان يجب أن تقدم في وقت سابق، قبل أن يقتحم جنوده بوابة القلعة، إلا أن بطرس خلافًا لكارل الثاني عشر، أبدى شهامة، وأشاد ببسالة المدافعين عن القلعة، وأمر بمنح كل الذين يتركون المدينة احتياطيًا من المأكولات يكفي لشهر، وكذلك عربات لنقل الحاجيات، وترك للضباط سيوفهم، وللجنود ثلث أسلحتهم.

فقد السويديون في ديريت حوالي ألفي جندي، بينما فقد الروس ٧٠٠ شخص، وبمناسبة تحرير هذه المدينة التي أسسها الأمير ياروسلاف الحكيم في عام ١٠٣٠، أطلقت نيران المدافع والنبادق ثلاث مرات، واستقل بطرس

يختأ إلى نارفا من خلال بحيرة تشودسكويه، وأخذ معه الإعلام والرايات السويدية التي استولى عليها الروس في ديربت.

واستمر حصار نارفا بعد أن بدأ في أواخر آيار (مايو)، وجلبوا إلى هنا من بطرسبورغ وديربت مدافع لم تكن موجودة حتى ذلك الحين تحت تصرف القوات التي تحاصر القلعة، كان القومندان هورن هو أمر حامية في عام ١٧٠٠، المنحوس بالنسبة للجيش الروسي وبترس، ولذا فعندما تلقى الأن- بعد أربع سنوات- اقتراحاً بالاستسلام رفضه بغطرسة وازدراء، ولسان حاله يقول: فليتذكر بطرس ما حدث هنا قبل أربعة أعوام.

ولم يتهيب القيصر، بل أمر بأن يقرأوا على جنوده رسالة هورن التي تضمنت رفض الاستسلام.

كان بطرس في حزيران (يونيو)، قبل تحرير ديربت، قد لقن هذا السويدي المتغطرس درساً لا ينسى، فإن عدة أفواج من الجنود الروس المرتدين بزات سويدية زرقاء اقتربت من نارفا حاملة الرايات السويدية البيضاء والصفراء من الجهة التي كان المحاصرون ينتظرون منها وصول شليبينباخ مع النجدة، وعند أسوار القلعة بدأ هؤلاء «السويديون» بقيادة بطرس نفسه «معركة» ضد الروس، وراح هورن يتابع الأحداث بمنظار من فوق سور القلعة، وعندما كان «القتال»، باعتقاده، في أوجه، أرسل فصيلة من القلعة إلى مؤخرة الأفواج الروسية، وغادر القلعة معها من البوابة كثير من المدنيين على أمل الإثراء والكسب، فقد كانوا يتذكرون جيداً- على ما يبدو- كيف نهب جنود كارل الثاني عشر الروس في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٧٠٠.

وهاجم الروس الفصيلة التي غادرت القلعة، وكبدوها خسائر جسيمة، وعمت الأفراح معسكر الروس بسبب إخفاق هذه العملية السويدية، وابتهج بطرس أيضاً:

- سيتذكر السادة السويديون المعقرون ذلك أمداً طويلاً.

وجاء في رسالة إلى كيكين بخصوص هذه الحادثة ببلاغة أكبر:

- لا يسعني إلا أن أكتب عما حدث قبل قليل، حيث خدع الحمقى الأذكياء، وعندما أفكر في ذلك أتحير في شيئين أولهما: كيف هداني الله إلى ذلك؛ وثانيهما: كيف حالت جبال الغطرسية والكبرياء (بعد الانتصار في عام ١٧٠٠- ملاحظة المؤلف)، دون السويديين ودون رؤية هذه الحيلة.

لم يستغرق الهجوم على نارفا في ٩ آب (أغسطس) سوى ٤٥ دقيقة، ولم يكن عبثاً أن تلي جواب هورن على الجنود - بأمر من بطرس - فقد انزعج الجنود من غطرسية السويديين، واقتحموا القلعة بسرعة، ولم يرحموا أحداً في معمعان القتال، واضطر بطرس مراراً أن يشهر سيفه ليحول دون التنكيل بلا موجب.

وأخيراً عاد هورن إلى رشده، وانتشل طبلاً، وأخذ يطرق عليه، بقبضتيه معلناً عن الاستسلام، واشتاط بطرس غضباً، وشهر سيفه الملمخ بالدماء، ولوّح به في وجه القومندان:

- انظر، هذه دماء الزوس، وليس السويديين، طعنت جنودي لأوقف الهياج الذي دفعهم إليه عنادك.

وتلقى هورن من القيصر صفة شديدة.

كان تحرير نارفا، مدينة روغوديف الروسية العريقة، بمثابة الثأر للهزيمة في بداية الحرب، وبمثابة الحد الفاصل في مرحلتها الأولى، فقد استعاد بطرس وروسيا قواهما بسرعة بعد الإخفاق الأول، وبفضل الجهود النشيطة أحرزا عدة انتصارات، ورسخا أقدامهما على ساحل البلطيق، وكان بالإمكان ألتقاط النفس، والركون إلى الراحة، إلا أننا نرى بطرس الهمام الذي لا يعرف الكلل مسرعاً من نارفا إلى ديريت، وهو يطلع مرافقيه من الجنرالات والوزراء على التحصينات، ويحدثهم عن سير الهجوم، ومن هناك توجه إلى حوض بناء السفن في أولونيتس عبر بسكوف ونوفغورود، وتأكد من سير الأمور في بناء السفن، ثم ارتحل إلى بطرسبورغ ليتأكد

من إنشاء المباني في «الفردوس»، ثم عاد إلى نارفا حيث استقبل السفير العثماني قبيل عودته إلى بلاده، وكان هذا الأخير يريد رؤية القلاع المنيعة التي يفتحمها الروس ويستولون عليها، وفي الطريق إلى موسكو تفقد بطرس في منطقة فيشني فولوتشوك ملتقى نهري «تفيرتسا» و«مستوى» وحدد مكان شق «قناة فيشني فولوتشوك».

وفي ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٠٤، دخل المنتصرون موسكو باحتفال مهيب، في الأمام سار الأسرى السويديون، وفي مقدمتهم الميجر جنرال هورن مع ١٥٩ ضابطاً، وبعدهم سحب ٨٠ مدفعاً سويدياً، وكانت الانتصارات والمستحدثات صدور جريدة «الوقائع» وتأسيس المسرح اللذين مجدا انتصارات السلاح الروسي - تبعث الفرح في نفس بطرس وتجعل المراقبين الأجانب يتأملون، ويطيلون التفكير، وكتب السفير البريطاني ويتورث إلى لندن، يقول: «حقق بطرس بعبقريته شخصياً، وبدون مساعدة من الآخرين تقريباً، في الفترة حتى عام ١٧٠٥، نجاحات فاقت كل التصورات، وقريباً سيرتقي بدولته طبعاً إلى ذروة من الجبروت تهدد جيرانها»، وكان السفير يتحلى دون ريب بنظرة ثاقبة، فقد أثبت المستقبل القريب مدى صحة توقعاته.